سلسلة الفتوحات الإسلامية

فتح مصر
(بابليون - أم دنين)

بقلم

محمد ثابت توفيق

مكتبة العبيكان

obeikandl.com

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان
فتح مصر: بابليون أو أم دنين.ـ الرياض.
٤٣ ص ؛ ١٧ x ٢٢سم (سلسلة الفتوحات الإسلامية ؛ ٨)
ردمك: ٩ -٩٢٢-٢٠-٩٩٦٠
١ ـ مصر ـ تاريخ ٢ـ الفتوحات الإسلامية
أ ـ العنوان ب ـ السلسلة
ديوي ٩٦٢,٠٢ ٢٢/٠٩٦٨

ردمك: ٩-٩٢٢-٢٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/٠٩٦٨

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ / ٢٠٠١ م

حقوق الطبع والنشر محفوظة

الناشـــر
مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة
ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرمز: ١١٥٩٥
هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الرسول ﷺ يوصي بأهل مصر خيرا

مكانة مصر:

كانت لمصر مكانة مهمة بين دول العالم، ولا زالت لها هذه المكانة حتى الآن؛ وذلك لما وهبه الله لها من نعم منها: اعتدال جوها، وخصوبة أرضها نظراً لجريان نهر النيل فيها، وكذلك لموقعها المتوسط بين دول العالم، فهي – وإن كانت تقع في قارة إفريقيا – تطل على قارة آسيا، وهي تربط شرق العالم بغربه عن طريق قناة السويس، ولمصر مميزات أخرى سيأتي ذكرها.

حكم الأقباط لمصر:

وكان ممن حكم مصر الأقباط، الذين حكموها ما يزيد على ست مئة عام، وكان أول حاكم لهم اسمه دركون، وآخرهم المقوقس؛ الذي عاش زمن بعثة الرسول ﷺ، وكانت له معه قصة طريفة.. حدثت عندما كان أقباط مصر خاضعين لسيطرة الروم.

الرسول ﷺ يدعو المقوقس إلى الإسلام:

في العام السادس من هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة أرسل –

obeikandl.com

عليه الصلاة والسلام – بعضًا من أصحابه الكرام إلى ملوك الأرض برسائل يدعوهم فيها إلى الخير، والدخول في دين الله.. الإسلام، ذلك لأن دعوة الرسول ﷺ لم تكن خاصة بأهل مكة أو المدينة المنورة كما كانت دعوات الرسل والأنبياء من قبله خاصة بقومهم فقط.

وكان حاطب بن أبي بلتعة هو رسول الرسول ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط في مصر، وذهب حاطب بالرسالة إلى مصر، فوجد المقوقس في الإسكندرية، فسلمه رسالة الرسول ﷺ وفيها:

«**بسم الله الرحمن الرحيم.. من محمد عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإنْ تَولَّيتَ فإن عليك إثم أهل القبط.**

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

حاطب يحدث المقوقس:

ثم تحدث «حاطب بن أبي بلتعة» رسول الرسول ﷺ، فحذر المقوقس

من العناد والكفر، وذكره بموقف طاغيةٍ شديد الظلم قد حكم مصر قبله، وهو فرعون موسى عليه السلام الذي رفض أن يؤمن بالله، وجمع جنوده، وظن أنه يستطيع غلبة موسى عليه السلام، وبلغ به الكفر أن ادعى الألوهية، وقال للناس إنه «ربهم الأعلى» والعياذ بالله، فكان جزاؤه أن أخذه الله بذنوبه، وانتقم منه.

ثم نصح حاطب المقوقس ألاَّ يفعل مثل فعل غيره، وأن يأخذ من عمل فرعون الدرس والعبرة، ثم دعاه إلى الإسلام، وحَسَّنَ له القول.

أخذ المقوقس خطاب الرسول فاحتفظ به في مكان أمين، بعدما أكرمه، ثم طلب كاتبًا ليكتب له رسالة بالعربية إلى الرسول ﷺ، أجاب فيها على دعوته إجابة لطيفة، وكان مما قاله:

«وقد علمتُ أن نبيّاً بقي، وكنتُ أظن أن يخرج بالشام، وقد أكرمتُ رسولك، وبعثتُ إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة وأهديتُ إليك بغلة لتركبها».

عودة حاطب إلى الرسول ﷺ:

وعاد حاطب إلى الرسول ﷺ بِردِّ المقوقس، وهداياه، فقبلها الرسول ﷺ، وتزوج من إحدى الجاريتين، وهي مارية القبطية التي انجبت له ابنه

إبراهيم؛ الذي أحبه الرسول ﷺ كثيراً وحزن عليه عندما توفاه الله تعالى .

البشارة:

وعلى الرغم من عدم إسلام المقوقس بشر الرسول ﷺ أصحابه بقوله: «**ستفتحون مصر، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً**»، وكلام الرسول ﷺ حق، وما يخبر به صدق، حتى وإن لم يكن قد حدث، إذ إنه الذي قال فيه ربه ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ**﴾ أي: لا يقول إلا صدقًا، وهو يعلم من الله ما لا تعلمه الناس، يبشر المسلمين بأنهم سوف يفتحون مصر، ويوصيهم بأن يحسنوا معاملة أهلها، ذلك لأنهم أهل ذمة، وكذلك فإن بينهم وبين المسلمين رحمًا، إذ تزوج إبراهيم – عليه السلام – من هاجر المصرية.

وكانت بشارة الرسول ﷺ بفتح مصر، ووصيته الكريمة بحسن معاملة أهلها في أذهانهم، ولكن متى يجيء الوقت المناسب لتحقيقها؟.

فتح بيت المقدس:

بعد أن أنعم الله على المسلمين بفتح الشام حاصروا مدينة إيليا أو مدينة بيت المقدس، وكانوا قد استولوا على الأردن، وجزء من فلسطين، وأتم الله عليهم نصرهم بأن تمكنوا من فتح القدس، وفيها بيت المقدس الذي أسري

بالرسول ﷺ إليه، فصلى بالأنبياء، وهو ثالث المساجد التي تشد إليها الرِّحال بعد المسجد الحرام في مكة، والمسجد النبوي في المدينة.

عمرو بن العاص يتطلع:

وكان عمرو بن العاص أحد قادة الشام المنتصرين حاضراً فتح بيت المقدس، وشاهداً على عهد الأمان الذي كتبه عمر بن الخطاب بنفسه لأهل المدينة، وبذلك امتد نور الإسلام حتى آخر فلسطين، ولكن هل يرضي هذا القائد المسلم الذي علمه دينه ورسوله ﷺ إلا أن يكون طموحه كبيراً في نشر دين الله تعالى؟!

إن لديه أسباباً مقنعة ينبغي أن يخبر بها حاكم المسلمين عمر، وهو يرى أن الوقت قد أصبح مناسباً لتحقيق بشارة الرسول ﷺ بفتح مصر.

obeikandl.com

الفصل الثاني

حوار بين عمرو وعمر

الأرطبون:

نحن الآن في العام الثامن عشر من هجرة الرسول ﷺ، ولكن قبل سنوات قليلة، وبالتحديد في العام الخامس عشر من هجرته ﷺ، كان يحكم فلسطين رجل اسمه الأرطبون، وحينما أراد المسلمون فتح هذه المدينة، ووصلت أخباره إلى عمر بن الخطاب، فعلم منها أنه رجل شديد المكر والشجاعة فقال:

«رَمَينا أرطبون الروم بأرطبون العرب؛ فلننظر عما تنفرج الأمور».

فماذا فعل الأرطبون؟ لقد هرب من أمام عمرو إلى مصر، وهناك أخذ يعد العدة، ويجند الجنود للعودة إلى الشام مرة أخرى، ومهاجمة المسلمين من جديد، وفي ذلك خطر دائم عليهم، ووجود هذا الرجل في مصر كان أحد أقوى أسباب عمرو لمناقشة عمر وإقناعه بفتح مصر.

الطاعون!:

ولكن لماذا انتظر عمرو ثلاث سنوات قبل أن يقرر مفاتحة عمر في فتح مصر؟

ذلك لأن مرضًا شديدَ الانتشار يقضي على الذي يُصاب به انتشر بين المسلمين في الشام، فقضى على كثير منهم، وفيهم القائد الشجاع، الذي أطلق عليه الرسول ﷺ لقب «أمين هذه الأمة» أبو عبيدة بن الجراح، وكان ذلك بين السنة السابعة عشرة، والثامنة عشرة للهجرة.

حديث بين عمرو وعمر:

وجاء عمرو إلى عُمر فوجده مسروراً، يحمد الله على ما أنعم عليه من فتح الشام، وانتشار الإسلام فيه، وقد هدأتْ القلاقل التي كان يجددها الروم فيه، وأخذ عمرو يمهد لما يريد أن يخبر به عُمر، فأخذ يذكره بأن رأس الحية القادر على تحريك الروم من جديد لمحاربة المسلمين ما يزال حيّاً، فسأله عمر عن هذا الرجل الذي يستطيع تحريك أعداء المسلمين بعدما خرج هرقل قيصر الروم من الشام، وودعها الوداع الأخير، وهو موقن بأنه لن يعود إليها ثانية، فأجابه عمرو بأن رأس الحية في مصر الأرطبون الجبان الذي لم يستطع مواجهة المسلمين، فهرب من أمامهم، وراح يجمع الجنود في مصر، ويقسم بأنه سوف يطرد ويزيل الإسلام عن الشام.

كانت الكلمات تتدفق من فم عمرو في قوة وحماسة، وذلك لأنه وهو القائد المسلم يريد أن يستمر الإسلام في الشام، ويتمنى أن يوفقه الله كي ينشر نور دينه في مكان آخر عزيز على المسلمين هو مصر، وعاد أمير

المؤمنين يهون من الأمر، ويقول له بأن وجود الأرطبون في مصر لا يمثل خطراً على المسلمين طالما أخذوا حذرهم، فقووا حصونهم. فأجاب عمرو على كلماته موضحاً له أن الحدود بين الشام ومصر شديدة القرب، لا يمكن الفصل بينهما، وأنه لن يتم فتح الشام إلا بفتح مصر.

عمر يخاف على المسلمين:

وصمت عمر بن الخطاب خليفة المسلمين، إنه يخاف على دماء المسلمين وهو المسؤول عنها، المحاسب عليها أمام ربه يوم القيامة، يخاف على هذه الدماء أن تراق على أرض مصر، وعدد جيش الرومان في مصر كبير، سوف يفوق عدد جيش المسلمين بكثير، عمر يخشى على دماء المسلمين وهو الذي سار بنفسه حتى مدينة بيت المقدس حينما علم أن في مسيره حفظًا لدماء المسلمين، وتحمل تعب السفر وخطره، وأيضًا خشي عمر أن تتجمع بقايا قوات الروم كما تجمعت من قبل في أجنادين، فكان لابد من مواجهتها لحماية الدولة الإسلامية، من خطر جنود الروم في مصر.

يعلم عمر أن عمْرًا شديد الحب لمصر، قد سافر إليها تاجراً في الجاهلية، وهو لا يزال كثير الحب لها حتى الآن، وأخذ عمر يسأله عما يعرفه عن أحوالها اليوم، فأجاب عمرو بأن أحوالها تذيب القلب شفقة على ما يواجهه

أهلها القبط من ظلم الروم، إذ إنهم قد فرضوا ضرائب كبيرة على أهلها، مما زاد في سوء حالهم فلم يبق إلا الإسلام هو المنقذ الوحيد لهؤلاء، أليس الله قد أرسل رسوله كي يخرج الناس من ظلم مثل هؤلاء الروم إلى عدله؟ بهذا المعنى أخذ عمرو يحدث عمر الذي تعجب من كثرة الظلم الذي يعانيه أهل مصر، فأضاف عمرو بأنهم يتحملون أكثر من هذا، ثم إن على أهل مصر أن يرحبوا بجنود الرومان الذين يمرون بهم، ويقدمون لهم الطعام والشراب، وإن رفضوا، أو امتنعوا؛ فالويل لهم.

رأي عمر:

دارت هذه المعاني بين أمير المؤمنين وأحد قادته المنتصرين، وأخذ حاكم المسلمين يفكر في الأمر ثم عاد يطرح معنى جديداً، وهو أن مصر ما تزال حلوة تبرق في عيني عمرو دون أن يحسب الأخطار التي سوف يتعرض لها المسلمون إذا غزوها.

أما عمرو فقد وضح معنى آخر هو أن سيره إلى مصر سوف يكون تحقيقًا لبشارة الرسول ﷺ، وهم بعد أن يفتحونها سوف يتخذون منها جيشًا كبيرًا يساعدهم على محاربة الروم، وأجاب عمر بأنه يتمنى تحقيق بشارة الرسول ﷺ، ولكنه يرى أن الوقت ربما كان غير مناسب لتحقيقها، وهو

يرى أن ينتظر حتى يقوى جيش المسلمين، ويستريح أكثر من المعارك الشديدة التي دخلوها، ولهذا فهو ينصح عمراً بالانتظار.

وأجاب عمرو بأن المسلمين إذا ما انتظروا فلن ينتظر الروم، إذ إنهم سوف يحاولون تجميع أنفسهم، وسوف يسعون للانتقام، ولذلك فهو يرى أن الوقت مناسب لفتح مصر؛ وبخاصة أن أهل مصر سوف يقفون مع المسلمين ضد الروم.

وأخذ عمر يفكر في حصون الروم في مصر، فطمأنه عمرو إلى أنها مهملة لا يقيم فيها كثير من الجنود فهي تخيف مَنْ ينظر إليها مع أنها مهجورة.

فقال عمر بن الخطاب:

«إن فتحتها كانت قوة للمسلمين».

عدد جيش المسلمين الذي سيفتح مصر:

وكان عدد جيش المسلمين الذي سيسير إلى مصر أربعة آلاف جندي فقط، رأى عمرو أنهم سوف يستطيعون مواجهة جموع الروم، ولكن عمر قال له:

«سِرْ وأنا مستخير الله في أمرك».

يأمره بأن يسير بالجيش ليفتح مصر، ولكنه يعلمه بأنه سوف يصلي صلاة استخارة؛ فإن اطمأن تركه، وإلا فإنه سوف يرسل خلفه رسولاً يأمره بالرجوع عن فتحها، ويخبره بأن الرسول إذا ما جاءه ولم يدخل مصر بعد، فإن عليه أن يعود على الفور، أما إذا جاءه وقد دخلها بالفعل، فليسر على بركة الله.

واجتمع جنود المسلمين مقررين السير لفتح مصر، ومواجهة الروم فيها مرة أخرى، لتحقيق بشارة الرسول ﷺ، أما عمرو فقد أخذ يسرع في مسيره بهم حتى لا يصله كتاب من عمر يأمره فيها بالرجوع قبل أن يصل إليها.

وصلى عمر صلاة الاستخارة واستشار الصحابة، وخاف على جنود المسلمين خوفًا شديدًا، فأمر أحد المسلمين أن يسرع خلف عمرو برسالة يأمره فيها بالرجوع عن فتح مصر إن لم يكن قد وصل إليها.

الفصل الثالث

أين نحن الآن؟.

رسول عمر:

كان عمر في حرص وخوف شديدين على دماء المسلمين، وكان عمرو حريصًا على نشر دين الله، وكلاهما على حق، أما ما قدره الله وأراده، فهو الذي سوف يكون.

سار عمرو في جوف الليل حتى لا يشعر به أحدٌ من الناس، وكان رسول عمر الذي يأمره بالرجوع خلفه، وبالفعل وصل إلى عمرو وهو في «رفح» قبل مصر.

علم عمرو بالخِطاب، وخاف إن أخذه أن يجد فيه أمرًا بالرجوع عن فتح مصر، ولن يستطيع ساعتها إلا إن يطيع، ففكر – وهو لا يعرف ماذا في الخطاب – في حيلة يستطيع بها المسير، ولا يعصي أمر أمير المؤمنين.

إنه القائد المسلم المخلص لدينه، وهو الذي يفاتح الحاكم في أمر فتح بلد جديد، ومواجهة جيوش الأعداء الكثيرة، وقوتهم الجبارة، دون أن يخاف وكيف يخاف؟

بينما قادة جيوش الروم يهربون من الحروب، ويسرعون إلى البلاد

البعيدة، فارق عظيم بين نوعي القادة، فارقٌ عظيم جداً بين أتباع محمد ﷺ المسلمين وغيرهم.

عند أبواب مصر:

أسرع عمرو بالمسير، وخيول المسلمين تسابق الرياح من خلفه، ورسول عمر بينهم، معه رسالة أمير المؤمنين، وهي مغلقة لا يعلم أحد ما فيها، حتى وصل عمرو بالجيش إلى قرية بين رفح والعريش، واطمأن إلى أنه بالفعل دخل مصر، هنا توقف، وسأل عن هذا المكان، فقيل له أن هذه القرية من مصر، دعا رسول عمر، وأخذ الرسالة منه، ثم قرأ ما فيه على الجيش، وقال للذين حوله منهم:

«ألستم تعلمون أن هذه القرية من أرض مصر؟».

قالوا:

«بلى».

إنه يشهدهم على أنه قد دخل مصر بالفعل قبل أن تأتي إليه رسالة عمر، فلما شهدوا قال:

«فإن أمير المؤمنين عهد إن لحقني كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع، ولم

يلحقني كتابه حتى دخلنا مصر، فسيروا وامضوا على بركة الله».

وعلى ذلك فقد سار جيش المسلمين حتى وصل إلى باب مصر.

رئيس النصارى يقابل عمرًا:

علم المقوقس حاكم مصر بخبر وصول عمرو وجيشه، فأرسل إليهم كبير النصارى، ومعه الأسقف، كي يمنعاه من دخول مصر، فقابلاه، وسط جمع كبير من الجنود وحين تقابلوا قال عمرو بن العاص:

«أنتما راهبا هذه البلاد فاسمعا، إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق وأمره به، وأمرنا به محمد ﷺ، وأدَّى إلينا كل الذي أُمِر به، ثم مضى وتركنا على الواضحة، وكان مما أمرنا به الإعذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فَمَنْ أجابنا إليه فمثلنا، ومَنْ لم يُجبنا عَرضنا عليه الجزية وبذلنا له المَنَعة، وقد أَعلمنا أنّا مفتتحوكم، وأوصانا بكم حفظًا لرحمنا منكم، وأن لكم إن أجبتمونا بذلك ذِمَّة إلى ذِمَّة».

وكان المقوقس قد أرسل مع الراهبين جيشًا من أهل الثبات، والقوة في الحرب لمحاربة المسلمين، غير أن عمرًا طلب أن يقابل الراهبين أولاً، وطلب منهما أن يسمعا له جيداً، فتذكر الراهبان السيدة هاجر، ومدحوا مكانتها، وتذكروا قصة زواجها بإبراهيم – عليه السلام –، ورحبوا بالمسلمين، وطلبوا

مهلة فأعطاهم عمرو خمسة أيام، يرجعون فيها إلى حكامهما، ويعودون إليه، وإلا حاربهم.

رأي المصريين في محاربة المسلمين:

رجع الراهبان إلى المقوقس والأرطبون، فأخبراه بكلمات عمرو، فعاند الأرطبون، وأصر على محاربة المسلمين، وقال بأنه سوف يحارب هو والمقوقس، وسوف يجتهدان، ومعهما قوتاهما للتغلب على المسلمين، وأوصى بعدم ذهاب الراهبين إلى عمرو، وأشار على أهل مصر بأن يعدوا قوتهم لمحاربة المسلمين، فقالوا له:

«ما تقاتلون من قوم قتلوا كِسْرى – حاكم الفرس –، وقيصر – حاكم الروم – وغلبوهم على بلادهم».

غير أن الأرطبون ازداد عناداً، وأخذ يلح عليهم كي يُقاتلوا.

المعركة:

وبالفعل لم يعد الراهبان إلى عمرو، وسار الجيش الرومي حتى عين شمس حتى التقى بهم، ودار القتال شديداً، أعاد إلى ذهن الأرطبون قوة المسلمين وثباتهم وشجاعتهم، فرأى منهم ما نشر الفزع في قلبه، وأشعره بالندم على تحريض الناس لمحاربتهم، فكانوا الأُسود الذين يهجمون على

عدوهم في قوة، فلا يستطيعون صداً لهم، ولا وقوفًا أمامهم، وكيف يقف الذي يريد الحياة أمام جند يقاتلون والموت أحب إليهم من كل شيء؟.

لقد حذر عمرو بن العاص الأرطبون من قتال المسلمين، فلم يفهم ذلك التحذير في أجنادين، فكانت نهايته هنا إذ قتل، ومعه عدد كبير من جنوده.

وحينما أراد الجيش دخول الحصن، صعده الزبير بن العوام، وكانوا قد تعبوا من قتال المسلمين، فقرروا الخروج، وطلب الصلح، فأمنهم عمرو بن العاص، وكتب لهم كتابًا فيه عهد ألا يحاربهم المسلمون طالما دفعوا الجزية؛ بل يدافع المسلمون عنهم ضد أعدائهم، وأولهم الروم، وكذلك يحفظون عليهم كنائسهم، فلا ينقص منها شيء، ولا يتهدم.

الأسرى:

وعاد الراهبان لكن بعد نهاية المعركة وانتصار المسلمين، يطالبان برد الأسرى والسبايا – وهن النساء اللواتي يؤخذن من المهزوم في الحرب – فرفض عمرو أن يردهم إليهم، وعندما علم أمير المؤمنين بهذا أمر عمرًا بأن يرد عليهم سباياهم ممن لم يقاتلوا المسلمين.

وكانت موقعة «عين شمس» هي أول موقعة خاضها المسلمون ضد

أعدائهم في مصر – على رواية ابن كثير في «البداية والنهاية» – .

ثم دخل جيش المسلمين في معارك أخرى في «فِرما» وهي قرية عند العريش، وكانت الحرب مع جيش المسلمين حرباً شديدة، استطاع فيها المسلمون أن يحسموا المعركة لصالحهم. وقيل: إن الجيش الإسلامي حاصرها لمدة شهر كامل.

المقوقس يتعجب من قوة المسلمين:

وحينما بلغت المقوقس انتصارات المسلمين المتتالية التي لم تكن تخطر له على بال قال لأصحابه:

«ألا تعجبون من هؤلاء العرب، يقدمون على جيوش الروم مع كثرتهم، وهم في قلة من الناس؟».

إنّه غير مصدق لما يحدث إذ كيف يهجم أربعة آلاف جندي على الروم، وهم أصحاب القوة والكثرة. فكان رد بعض القبط من المصريين عليه:

«إنَّ هؤلاء لا يتوجّهون إلى جيش إلا انتصروا عليه، وغلبوه».

إنها الحقيقة؛ فما قابل المسلمون جيشًا إلا وهزموه، ولو أن المقوقس فهم هذا جيداً لَوفَّر على نفسه الكثير من الحروب، أما أهل مصر فقد أدركوا

ذلك، وقبلوا صلح عمرو لهم، أما الروم فقد استمروا على عنادهم الذي علمه المسلمون عنهم في معاركهم السابقة.

حصن أم دنين(١)

وسار المسلمون حتى وصلوا إلى مدينة اسمها بلبيس، وهي تقع في شرق مصر، فقاتلوا فيها شهراً حتى استطاعوا أن يحققوا النصر، ولكنه حينما وصلوا إلى مكان اسمه «أمُ دُنَين» وجدوا فيه رجلاً من عظماء الروم اسمه المَنْدَقُور، وقيل: إن المقوقس كان فيه أيضاً، ولذلك اشتد دفاع مَنْ به عنه، وكتب عمر إلى عمرو يطلب منه جيشاً مساعداً، فأرسل إليه أربعة آلاف مقاتل آخر، فصار عدد المسلمين ثمانية آلاف، أحاطوا بالحصن؛ لكنهم لم يستطيعوا دخوله مع هذا!.

خطة جندي مجهول من المسلمين:

في مثل هذه المواقف الشديدة تظهر قوة وشجاعة المسلمين، خرج رجل من المسلمين رأى ما هم فيه من تعب، وعدم قدرتهم على دفع عدوهم للخروج إليهم ومقاتلتهم، فاقترح خطة بأن يسير جند من المسلمين إلى خلف الروم، فيفاجئونهم، وبالفعل أمر عمرو بأن يخرج خمسمائة من

(١) وقيل: بابليون. انظر «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» – ابن إياس – ص ٨، ٩، ١٠، ١١.

الجنود الفرسان بقيادة خارجة بن حذافة فساروا، حتى فاجؤوا الروم، وقاتلوهم قتالاً شديداً هُزموا فيه، واضطروا لدخول الحصن.

ولكن الموقف لم يحسم بعد، والروم قد دخلوا حصنهم مرة ثانية.

وأرسل عمرو إلى عمر يطلب منه جيشًا آخر، ويصف موقفه، فأرسل إليه أربعة آلاف رجل آخرين، فصار عدد الجيش اثني عشر ألفاً، وأرسل عمر إلى عمرو يقول:

«اعلم أن معك اثني عشر ألفًا، ولن تُغلب اثنا عشر ألفاً من قِلة».

وأكثر عمرو من هجمومه على الحصن، ونصب حوله المنجنيق – وهي آلة ضخمة كانوا يستخدمونها في ضرب أسوار الحصون المغلقة –.

وكان الحصن قويًا لأن كثيراً من حامية الروم به، وكان المقوقس ينزل به إذا أراد أن يترك موقعه في الإسكندرية، فيتنزه فيه؛ لأنه يطل على النيل، هذا هو حصن بابليون التي يحميه الروم من أم دنين.

الحيلة:

واحتال الروم للقضاء على عمرو؛ فطلبوا أن يدخل إليهم عمرو كي يتفاوضوا معه، فدخل إلى الحصن، وتفاوض معهم، ثم طلب منهم أن يرجع كي يستشير أصحابه، وكان الروم قد أوصوا الجندي الذي على الباب أن

يقتل عمراً حينما يمر به بأن يلقيَ على رأسه صخرة، لكن عمراً مرَّ قبل خروجه برجل من العرب قال له كلمات قليلة نبهته إلى أن هناك شيئاً خطيراً ينتظره، لقد قال الرجل له:

«قد دخلتَ، فانظر كيف تخرج».

فعاد عمرو على الفور إلى كبير الروم في الحصن وقال له:

«إني أريد أن آتيك بنفر من أصحابي حتى يسمعوا منك مثل الذي سمعتُ. إنهم يريدون خداع عمرو، وعمرو يريد خداعهم، لذلك أوهم صاحب الحصن بأنه سوف يعود إليه، ومعه جماعة من المسلمين، فقال الرجل في نفسه إنه لو قتل جماعة من كبراء المسلمين، فذلك أفضل من قتل عمرو وحده، فأرسل إلى الجندي الواقف على الباب ألا يقتل عمراً، فخرج سالمًا ولم يرجع إليهم ثانية.

إنها نفس الحيلة التي جربها الأرطبون مع عمرو في معركة أجنادين، هي .. هي.

ولم تقتصر أفعال الروم على عمرو وحده، بل إنهم رأوا ذات مرة الصحابي الجليل عبادة بن الصامت يصلي قريباً من الحصن، فخرجوا إليه، فلما رآهم قام مسرعاً إليهم، فأخذوا يجرُون من أمامه، وهم يُلقون بمتاعهم

في طريقه كي يمنعوه من الوصول إليهم، فلم يلتفت إليه، لكنهم دخلوا حصنهم وأغلقوه عليهم.

شجاعة الزبير:

وتأخر فتح الحصن على المسلمين حتى قارب حصارهم له سبعة أشهر، هنا قال الزبير بن العوام:

«إني أهب نفسي لله، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين».

يعلن أنه يبذل ويعطي نفسه لله، ويرجو أن يحقق الله على يديه الفتح، وفعل ما أذهل الروم، وأعجزهم عن التصرف، إذ إنه جاء بسُلَّم على أحد جوانب الحصن.

إنه يعرِّض نفسه لخطر شديد، إن عدوَّه قد حصن نفسه، فعجز جيش المسلمين عن إخراج العدو من الحصن لأشهر عديدة. أما الزبير المؤمن الشجاع فإن لديه حلاً آخر، هو أن يضحي بنفسه في سبيل نصرة الإسلام، فقرر أن يصعد على السلَّم بمفرده حتى يصل إلى أعلى الحصن وليس في يده سلاح كاف، وهو موقن بأنه سوف يموت شهيداً، لكنه يرجو من الله أن يحقق الفتح على يديه قبل وفاته، وهو فعل عظيم لا يصدر إلا عن المؤمنين حقّ الإيمان، يضحي أحدهم بنفسه في سبيل نصرة الجيش كله، نعم، لذلك سادوا وملكوا الأرض كلها.

المفاجأة:

وكان الزبير قد اتفق مع الجنود المسلمين على شيء واحد قبل أن يصعد السلَّم، وبالفعل صعد وحينما وصل إلى السور، هتف من أعماق قلبه:

الله أكبر.

ومعه هتف اثنا عشر ألف مقاتل من المسلمين، فردد الكون كله هذه الكلمة الغالية، وتردد صداها حتى هز جدران الحصن، وزرع الخوف في قلب الروم الذين ذهلوا، ولم يشعروا بشيء مما يدور حولهم، لقد أرعبهم النداء، فظنوا أن المسلمين جميعاً قد استطاعوا دخول الحصن، ولم يفكروا في استحالة هذا.

ورأى المسلمون الزبير حيًّا بل يتقدم فوق سور الحصن، فأسرعوا يصعدون خلفه، حتى خشي عمرو أن ينكسر السلَّم بهم، فمنعهم من الصعود، ودار الزبير وبعض جنود المسلمين فوق السور حتى استطاعوا فتح باب الحصن، والروم في ذهولهم لا يزالون!.

الصلح:

واقتحم المسلمون الحصن، وصاروا داخله، فلما رآهم المقوقس خاف على نفسه وأشفق على جنود الروم، فأسرع يطلب الصلح من عمرو، فوافق

على طلبه، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي إذا طلبوا السلام، وتوقفوا عن قتال المسلمين، فإن على المسلمين أن يجيبوهم.

ووافق المقوقس عظيم مصر على أن يدفع الجزية للمسلمين بعدما رأى قوة المسلمين. وتحول اسم أم دنين وحصن بابليون إلى «الفسطاط»، نسبة إلى الخيمة الكبيرة التي أقامها عمرو لنفسه في جزء من المكان.

لقد تعلم المقوقس من المسلمين أن القوة ليست في كثرة العدد والسلاح، بل في الإيمان بعقيدة صحيحة، والدفاع عنها، وهل رأى قبل هذا قومًا أخلص لدينهم من المسلمين؟!

تحديد قيمة الجزية:

ولما سمع عمرو بأن المقوقس وافق على دفع الجزية، اجتمع بأصحابه، وأخذ يستشيرهم فقالوا:

«لا تجبْه إلى الصلح، ولا الجزية، ونحاربه حتى يفتح الله علينا بالنصر عليهم».

إنهم يريدون معاودة قتال الروم، وعدم قبول الجزية منهم، حتى يحققوا نصراً عسكرياً كبيراً عليهم، فقال لهم عمرو:

«قد علمتم ما عهد إليَّ أمير المؤمنين، بأن أجيب إلى خصلة من هذه الخصال الثلاث، وقد طال الأمر بيننا وبينهم».

والخصال الثلاث: الإسلام، أو الجزية، أو الحرب، وقد أمر عمر بأن يقبل عمرو أحد هذه الشروط، فلا يستطيع عمرو أن يعصي أمره، ولم يكن المسلمون على أية حال ليقاتلوا مَنْ طلب الصلح معهم.

فاتفق رأي الصحابة الكرام على أن يدفع الجزية كل قبطي، وهي ديناران على كل قادر على العمل، فلا يدفعها الشيخ الضعيف الصحة، ولا يدفعها الصغير الذي لم يبلغ، ولا يؤخذ عن النساء جزية، وكذلك فإن للمسلمين أن ينزلوا على القرية التي يحبونها، فيضيفهم أهل القرية لمدة ثلاثة أيام.

وكان عدد الأقباط في ذلك الوقت كبيراً إذ يقدر بثمانية آلاف ألف – أي: ثمانية ملايين – إنسان، هذا غير عدد الروم، فقال المقوقس للأقباط:

«مَنْ أحب منكم أن يقيم بأرض مصر، فَلْيَزِن الجزية، ومَنْ أراد الخروج إلى أرض الروم، فليخرج، ولا جزية عليه».

المقوقس يعلم الأقباط بأن الاختيار لهم، فَمَنْ أراد البقاء في أرض مصر، فإن عليه أن يدفع الجزية، الدينارين اللذين حددهما المسلمون، وهو مبلغ

بسيط مقابل ما كانوا يدفعونه للروم، والذي لا يريد فإن الحرية له، فليترك مصر، ولن يدفع الجزية.

ولم يبق إلا أن يخبر المقوقس ملك الروم بهذا الاتفاق..

obeikandl.com

الفصل الرابع

معركة جديدة

خط سيّر المسلمين:

دخل المسلمون مصر عن طريق العريش، ثم قابلوا الروم في عين شمس، وكانت معركة «فارما» بعدها، في رأي كثير من المؤرخين، ثم هجموا على الروم في الإسكندرية، فكانت معركة أم دنين في الطريق إليها، وقد بقي للجيش الإسلامي فتح الإسكندرية، ولكن شيئًا مهمًا حدث..

رأي حاكم الروم:

حين أرسل المقوقس يطلب رأي حاكم الروم الهارب في الصلح الذي عقده مع المسلمين رد عليه بخطاب يقول فيه:

«قد أتاك من العرب اثنا عشر ألف إنسان، فعجزت عن قتالهم، وبمصر ما لا يحصى من الروم، فلا سبيل إلى هذا أبداً».

إنه لم يتعلم من الدرس، إنه لا يزال يحسب قوة الجيش بكثرة عدده، إنه لم يُفرق بعدُ بين العرب والمسلمين، لم يعرف بأن الذين يقاتلونه ويهزمونه مرة بعد أخرى ليسوا العرب الذين يعرفهم، بل هم المسلمون الذين غيَّر الإسلام فيهم الكثير، فصاروا أبطالاً لا يستطيع أحد أن يوقفهم، أو يُضعف

عزمهم، وها هم يتحدون باثني عشر ألف مقاتل مسلم ما لا يعد من الروم، وأيضاً عدد كبير من القبط.

لتلك الحسابات الخاطئة التي في ذهن حاكم الروم وحده، والمخالفة للحقائق على أرض الواقع،، أعلن المقوقس مخاطبًا عمراً:

« إنَّ ملك الروم لم يوافق على أمر الصلح، ولا الجزية، ولم يكن الصلح مني ».

القتال:

لم يبق إذن إلا القتال من جديد بين المسلمين والروم، فالمقوقس الحاكم لا يستطيع أن يتخذ قراراً بنفسه بعيداً عن قيصر الروم، فهو حاكم تابع، وقيصر الروم لا مملكة له، وهو لا يحارب بنفسه كي يعاني ويذوق ويلات الحرب، ولذلك فهو يتخذ القرار غير المناسب، في الوقت غير المناسب، وكان قراره بمثابة إعلان للحرب.

أخبار جديدة:

ثم جاءت الأخبار الجديدة إلى عمرو تفيد بأن ملك الروم لم يكتف بما في مصر من جنود، فأرسل جنوداً كثيرين، حتى إنهم يصفون كثرة عددهم بأنهم: « عسكر عظيم في البر والبحر، لقد أرسل بعدد كبير منهم عن طريق

البر وأرسل بعدد آخر عن طريق البحر، إنه يريد إطالة زمان الحرب، غير مدرك أن ذلك ليس في صالحه، فهو يدفع بالمزيد من جنوده إلى الموت، وهو يتحدى المسلمين الذين لا يتراجعون عن مكان قدر الله أن ينشروا نوره في بعض منه، وهم الذين غلبوا جموعه في اليرموك، وفي أجنادين أفيعز عليهم أن يفتحوا مصر.

كان حاكم الروم يغالب آلامه، فمصر بمنزله درة التاج بالنسبة إلى مملكته المفقودة، ولقد فقَدَ الكثير، فقَدَ سوريا ولبنان والأردن، وأخيراً فلسطين بما فيها من مقدسات، ويعز عليه اليوم أن يفقد قطعة عزيزة من البلاد التي كان ينشر فيها ظلمه على أهلها. ويخيل إليه أنه سوف يستطيع مواجهة المسلمين، وإرجاعهم، أو القضاء عليهم..

موقف عمرو:

وحينما سمع عمرو هذه الأخبار لم ينتظر، وإنما خرج بالجيش، واستعد لقتال الروم في مكان اسمه الكريون، فنظم صفوفه، فجعل عبدالله بن عمرو ابن العاص على مقدمة الجيش، وجعل الراية في يد وردان.

لم يكن يخفى على عمرو أن الموقف شديد الخطورة وهو يعلم أن النصر لا يتحقق إلا بالالتجاء والتضرع إلى الله تعالى، لذا فقد بادر إلى الصلاة

والدعاء وطلب العون من الله تعالى.

ثم خرج للقتال، فقابل عساكر الروم، واستجاب الله لدعاء عمرو، فهَزم الروم رغم كثرة عددهم، وزيادة سلاحهم؛ لأنهم يقاتلون دون عقيدة، ودون غاية يسعون عليها في الدنيا، ولا مصيراً سوف ينالونه في الآخرة، فأخذتهم سيوف المسلمين في قوة شديدة، لم تترك لأحدهم فرصة كي يفكر في المصير المجهول الذي ينتظره، فقتل من الروم في ذلك اليوم مالا يحصى عدده.

وكانت جموع الروم حينما ازداد هجوم المسلمين عليهم قد توجهوا إلى الإسكندرية فحصنوها، وكان حولها في ذلك الوقت سبعة أسوار.

إلى الإسكندرية:

واستعد الجيشان للمعركة القادمة، أما هرقل حاكم الروم فقد أرسل إلىٰ جميع البلدان التي لا يزال له سيطرة عليها، يطلب من أهلها أن يرسلوا إليه جنوداً لمحاربة المسلمين، على أن يكون هذا في أسرع وقت، ولم يكفه ما تسبب في قتل من قتل من الجنود الرومان في المعركة السابقة.

وأسرع المسلمون بالمسير إلى الإسكندرية، أما عن عمر بن الخطاب فقد أحس بتأخر فتح عمرو لمصر فأرسل إليه رسالة يقول فيها:

رسالة من عمر:

« . . فقد عجبتُ لإبطائكم عن خبر الفتح، منذ سنتين، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أنّ مصر ستفتح على أيديكم، وما ذاك إلا لما أحدثتم من ذنوب وأحببتم من الدنيا في قلوبكم، وأنّ الله تعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نيّاتهم، فإذا أتاك كتابي، فاخطب بالناس وحضّهم على القتال، ورغّبهم في الصبر، وأن تكون لهم صدمة – هجمة – كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال – بعد صلاة الجمعة – من يوم الجمعة، فإنها ساعة تتنزل فيها الرحمة، ووقت الإجابة ».

عمرو يعمل بنصيحة عمر:

وصل خطاب عُمر، وعمرو معسكِر بجيش المسلمين، محاصر للروم في الإسكندرية، فلما تسلمه قرأه على المسلمين، ثم صلّى ركعتين لله، وسأله أن يرزقه النصر. وقدَّر الله أن يكون يوم استلام عمرو لخطاب عمر يوم جمعة.

وخرج المسلمون لقتال الروم، وأخلصوا القتال لله، وجعلوا في نفوسهم حب الاستشهاد، وأيقنوا أن النصر إنما يتنزل من عند الله على جنوده المجاهدين إذا ما اجتهدوا، وبذلوا كل ما يستطيعون من قوة في سبيل تحقيقه، فهان عدد جنود الروم الكثيف في عيونهم.

واشتدت المعركة، وعلا صليل – صوت اصطدام – السيوف، وارتفعت أصوات التكبير من حناجر المسلمين تهز أجساد أعدائهم، وأخذت شفاههم تهمس بالدعوات الحارة إلى رب العزة بأن يرزقهم النصر، وألا يخذلهم وينصر عدوهم عليهم في هذه المعركة الفاصلة التي سوف يتحقق بناء عليها مصير فتحهم لمصر.

وتنزلت رحمة الله على المسلمين، فأحسوا في داخل صدورهم بقبوله عز وجل لدعواتهم؛ تلك الطمأنينة والسكينة التي يحسها المقاتل داخل نفسه وقت اشتداد المعركة، وتلاحق الأنفاس، وتطاير الرؤوس، وصهيل الجياد، وهي تشعر بحرارة الفارس الذي يمتطيها، وهكذا تحولت ساحة المعركة الواسعة إلى رقعة صغيرة ليس فيها إلا المسلمون، وقد هجموا في نظام شديد على عدوهم ، فلم يستطع العدو تحملاً لسيوفهم الحادة ولم يستطيعوا – على كثرتهم أن يفكروا إلا في أمر واحد، كيف يهربون من ميدان المعركة.

النصر:

كانت الإسكندرية قبل هذا اليوم هي دار المملكة – أي: المكان الذي يحكم منه الروم ما تبقى من مملكتهم – فسقطت من بين أيديهم،

وارتفعت في أيدي المسلمين، وأخذ جنود هرقل الذين جمعهم من مختلف البلدان يسارعون في الهرب، غير متمسكين بكلماته الزائفة التي غسل عقولهم بها، وزين لهم الدخول في حرب ضد أسود ساحات القتال، وقد هرب هو بنفسه، وتركهم يموتون وحدهم، أسرعوا يسحبون المراكب الكبيرة، يضعونها في البحر، وفي آذانهم كلماته الزائفة عن الحفاظ على المملكة الرومانية، فأخذوا يحملون ما استطاعوا حمله من المال، وأخذ ما وصلت إليه إيديهم من المتاع، وهم يسخرون من هرقل في نفوسهم، ويقولون لو أنه كان صادقاً لجاء كي يحارب المسلمين معهم، ويذوق مرارة سيوفهم، فيكون أول الهاربين!.

غير أن جماعة من جنود الروم لم يستطيعوا الهرب، فدفعوا الجزية التي رفض هرقل الاعتراف بها، ودفعهم إلى ميدان المعركة كي يظهر قوته، فخيبه الله، وحقق لجند الإسلام ما أرادوا، ونشر نور دينه في مصر كلها، ليخلص أهلها من ظلم وتحكم الروم فيهم.

وكان في مدينة الإسكندرية أربعون ألف يهودي فرضت عليهم الجزية أيضاً. وكان فتح الإسكندرية مكملاً لفتح مصر في بداية العام العشرين من الهجرة.

وصول خبر النصر إلى عمر:

أرسل قائد المسلمين عمرو بن العاص رسالة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يبشره فيها بنصر الله، وبفتحه الجديد، الذي أنعم الله به على المسلمين بعد عامين من سيرهم لفتح مصر، فسار بهذه الرسالة معاوية بن خديج، فسار حتى دخل المدينة المنورة، وقت الظهر، وقابل أمير المؤمنين وسلمه الرسالة وفيها يقول عمرو:

« . . فإني فتحتُ مدينة الإسكندرية، وهي مدينة لا أقدر أن أصف لك ما فيها، وهي ثلاث مدائن، بعضها فوق بعض، تختطف الأبصار من شدّة بياض حيطانها، وفيها من الأعمدة الرخام ما لا يحصى عددهم».

ثم أخذ يزيد في وصف المدينة، ومنار البحر أحد عجائب الدنيا بها، ويَعدُّ له عدد المراكب الكبار التي أخذها بعد هرب الروم وهي تقدر بمئة ألف مركب، ثم ذكر عدد جنود الروم الذين وجدهم، وأخذ منهم الجزية، ثم ذكر عدد اليهود أيضًا.

فرحة عمر بفتح مصر:

حينما قرأ عمر الرسالة، وسمع البشرى من معاوية بن خديج فرح بذلك فرحًا شديداً، حتى لقد نادى في أهل المدينة المنورة جميعًا بأن: الصلاة

جامعة أي أنه يدعو جميع المسلمين إلى الصلاة، ويقطع عليهم أمور حياتهم لأن أمرًا عظيمًا قد حدث، فسمع بذلك الصحابة، فخرجوا إليه جماعات، حتى وصلوا إلى المسجد، فلما اكتملوا، خرج عمر إليهم، فأخبرهم بالخبر السار، ثم صلى ركعتين شكرًا لله.

أول حاكم للمسلمين على مصر:

ردَّ عمر على بشارة عمرو بأن جعله أول حاكم للمسلمين على مصر، وأوصاه أن يُخيِّر مَنْ تحت يده من الأقباط بين الإسلام إن أرادوا، وبين دفع الجزية، والذي يدخل في الإسلام منهم فلا يأخذ الجزية منه، والذي يصبر على البقاء على دينه، فلا يجبره على تركه بل يأخذ منه الجزية.

أي عظمة هذه التي تدفع بالحاكم العام للمسلمين أن يكرر هذا المعنى كي يؤكد على عدم ظلم المصريين، ويترك حرية الاختيار لهم، فَمَنْ شاء أسلم، ومَنْ شاء بقي على دينه، لا يؤخذ في العام منه سوى دينارين، أين هذا مما كان يعانيه المصريون من ظلم شديد على يد الروم لسنوات طويلة، نعم إنه نور العدل، إنها شمس الإسلام التي أشرقت على مصر، فأحس أهلها للمرة الأولى بمعنى الحياة، ذلك لأنهم صاروا في حماية فرسان المعارك، الرحماء بالناس في وقت السلم: المسلمون وهل حدث في التاريخ كله، في تاريخ غير المسلمين، مثل هذه القصة الطريفة البسيطة المعبرة القادمة:

عمرو واليمامة:

كان عمرو قد جعل خيمته التي سُميت بالفسطاط أمام قصر الشمع؛ أو حصن بابليون، وحينما أراد المسير بالجيش إلى الإسكندرية – قبل أن يعرف أن هرقل يجهز لحربه في الكريون – وجد المسلمون الذين كلفهم بجمع الخيمة يمامة قد باضت في عش في الفسطاط، وهي راقدة على بيضها، وفي وسط هذه الأحداث الكبيرة الخطيرة التي يواجهها المسلمون بعدما طال وقت فتحهم لمصر، وتأخر فتحهم لأم دنين «حصن بابليون» كثيراً، في وسط هذه الظروف المشحونة بروح الحرب، والاستعداد لقتال جديد، تنفجر الدماء فيه، وتتطاير الأشلاء – بقايا الموتى –، تدرك الرحمة قلوب المسلمين المكلفين بجمع خيمة عمرو وهم يرون أن جمع الخيمة سوف يحزن اليمامة، إذ سوف يسقط بيضها الذي رقدت عليه طويلاً، أفي هذا الوقت يهتم المسلمون بهذا الأمر؟

رحماء الكون:

إنَّ المسلمين لم يخرجوا من أجل الحرب، بل إن الروم هم الذين دفعوهم إلى قتالهم، ولقد كان المسلمون في قرارة أنفسهم يتمنون ألاَّ يدخلوا معهم في معركة، وألا يريقوا دمهم، ولكنهم هم الذين صمموا، فكان لا مهرب من مواجهتهم، وهم عندما يحاربون يحذِّرون عدوهم من حربهم،

ويعطونهم فرصة للتراجع والتفكير، كما فعل عمرو مع الراهبان قبل معركة عين شمس، فإن أصروا دخلوا في حرب معه، ومتى أعلن العدو طلبه للصلح استجاب المسلمون له، فأوقفوا القتال كما حدث بعد حصار أم دنين، وفتح حصن بابليون، ذلك لأنهم خرجوا لنشر دين الإسلام في الأرض، وأعداؤهم قليلو العقل يحاولون منعهم، فمتى تركوهم ترك المسلمون قتالهم.

أما اليمامة فلها في نفوسهم مكانة أخرى، فما ذنبها فيما يحدث، وقد علمهم رسولهم ﷺ أن يرحموا حتى الحشرة الضارة إذا أرادوا قتلها فلا يضربونها إلا ضربة احدة، أفلا يرحمون اليمامة، ويبقون على صغارها؟!.

لقد تناقلت مصر كلها في ذلك الوقت، ورددت كلمات عمرو الخالدة لأصحابه حينما علم أن اليمامة في عشها، لا تريد تركه خوفاً على بيضها، وعلى أبنائها القادمين:

«اتركوا الفسطاط على حاله – كما هو – احتراماً لليمامة التي عششت فيه».

ما أروع الرحمة التي جعلها الله في قلوب المؤمنين، وسمع أهل مصر بهذه الحكاية، ففهموها، فهموا أن عهداً آخر قادم، يختلف اختلافاً تاماً

عما عانوه على يد الروم؛ إذ إن المسلمين الذين رحموا اليمامة سوف يحكمونهم!.

مكان الفسطاط:

وأراد الله أن يخلد هذه الحكاية، وأن يُذكر عمرو بها، فبعدما فتح حصن الإسكندرية، وعاد إلى مصر، أخذ الصحابة يسألونه عن مكان يتحصنون به، ويبنون مدينة يحكمون مصر منها، فقالوا له:

«أين ينزل العسكر؟».

فأجابهم:

«مكان الفساط».

أي: مكان الخيمة التي تركها لليمامة.

في مكان أحبه:

وشاءت إرادة الله تعالى أن تجيء وفاة عمرو بن العاص بعد أن دار الزمان دورته، وحدثت أحداث عظام في المكان الذي أحبه، وقاد جنود المسلمين، وأتم الله على يديه فتحه. فقد توفي في مصر في العام الثالث والأربعين من الهجرة، ودفن في المسجد المسمى باسمه، حيث كان أول مسجد في مصر.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول	
الرسول ﷺ يوصي بأهل مصر خيراً	٥
الفصل الثاني	
حواريين عمرو وعمر	١١
الفصل الثالث	
أين نحن الآن	١٧
الفصل الرابع	
معركة جديدة	٣١

obeikandl.com